Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وهو يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، ثم قدر له أيضاً أن يشهد قيام الدولة التى قامت على أنقاضهم ، وهى دولة بنى جهور بقيادة أبى الحزم ، وأسوأ ما فى حياة الأمم هاتان الحقبتان ، حقبة انهيار الدولة حتى تسقط ، وحقبة قيام الدولة حتى تستقر ، فأما حقبة أواخر الدولة فإن السوء فيها يتمثل عادة فى شيوع الفساد والانحلال ، الذى ينبع غالباً من سيطرة الترف على حياة السادة والحاكمين ، ثم يسرى كالداء فى بقية طبقات الأمة ، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

وأما حقبة قيام الدولة وتأسيسها فإن السوء فيها ينبع عادة من حاجة الدولة الناشئة إلى إرساء قواعدها بأى وسيلة ، ولو كانت وسيلة البطش والخروج على كل القيم والمبادىء والقوانين ، وهذا وإن وجه إلى أفراد أو جماعات إلا أن شظاياه تنتشر فتصيب الجميع .

وقد كان من سوء حظ ابن زيدون أن ابتلى بالحقبتين معاً ، حيث نهل من فساد الحقبة الأولى حتى كان من أسوأ الماجنين مجوناً ، وما ترك سبيلاً من سبل المجون حينذاك إلا أوغل فيها ما شاء له الإيغال ، ثم تقلبت به الحقبة الثانية حتى مكنته من منصبى النظارة والسفارة ، وكان بهذا أعلى من الوزير شأناً ، ولكنها تعود فتهوى به فى قاع السجن دون أمل منظور فى الخروج منه .

فهو إذن قد ذاق حلو الحياة ومرها ، وكان مما ذاقه من حلوها صلته بولادة بنت المستكفى[٥٥] التى لم تكن أقل من أيام ابن زيدون تقلباً ، فلما صعدت الأيام بابن زيدون سعت ولادة إلى تقريبه واصطناع حبه ، ولما هبطت به الأيام انسلت ولادة من صلته لتسعى إلى ود غريمه العجوز ، الوزير ابن عبدوس ، ثم وصل ابن زيدون إلى أسوأ حالاته فى السجن ، يخيم عليه البؤس واليأس معاً فكان خيال ولادة بالقياس إليه حينئذ خيال أيامه الحلوة ، ومجده الذاهب ، وكان ألم فراقها هو ألم فراق النعمة والمجد لحياته ، وكانت غيرته من احتلال ابن عبدوس مكانه فى ود ولادة تمثل إحساسه بانتصار أعدائه فى كل مجال عليه ، فصلته بولادة فى حقيقة أمرها لم تكن حباً عاطفياً نقياً كالحب الذى هام فيه بعض الشعراء والعشاق ، وإنما كانت صلته بها صورة من حياته وذكرياته ، ذكرياته الحلوة ، وواقعه البائس اليائس .